

معالم الفكر السياسي الإسلامي

د. عبد الله النفيسي *

« ان الملك (السلطة) لا يتم عزه الا بالشريعة ، ولا قوام
للشريعة الا بالملك ، ولا عز للملك الا بالرجال ، ولا قوام بالرجال
الا بالمال ، ولا سبيل الى المال الا بالعمارة ، ولا سبيل
للعمارة الا بالعدل والعدل باصلاح العمال وصالح العمال
باستقامة الوزراء » . *

ابن خلدون في « المقدمة »

التصور الشائع والتصور المغفور :

ان التصور المبتوث في اذهان الناس العاديين حول الاسلام انه دين .
والدين في نظرهم وتصورهم هو ما يتعلق بالاخلاق الفردية والاحوال الشخصية
ولا يتعدى في تعاليمه هذه الاطر . هكذا كان شأنه في التاريخ وشأنه في الحاضر
وما ينبغي أن يكون عليه شأنه في المستقبل . هذا التصور الخاطئ من
الاساس المبتوث في اذهان الناس العاديين حول الاسلام هو ثمرة التأمر
الثقافي والفكري والسياسي والحضاري التاريخي الذي نشط في تعزيزه الغرب
عبر معاهده وجامعاته وعملائه الحضاريين في كل ارض الاسلام . لو صح
هذا التصور ، ما كان ينبغي أن يحدث ما حدث في تاريخ الاسلام ، وما نشأ
وترقى من حضارة منهجية ملتزمة في جوف الجزيرة العربية وبغداد ودمشق
والاندلس وقرطاج والهند وفارس وبخارى وكافة المناطق الجنوبية في ما
يسمى الان بالاتحاد السوفييتي . لو كانت مهمة الاسلام في هذا الكون هي فقط
تهذيب وتشذيب اخلاق الناس لما كان هناك داع تاريخي لكل الفتوحات
الاسلامية ولكل جند الاسلام ولكل سرايا القتالية المدججة بالسلاح التي كان
يباركها رسول الله محمد . لو كانت مهمة محمد عليه الصلاة والسلام تنحصر

★ اسناد العلوم السياسية بكلية التجارة في جامعة الكويت .

★★ ما بين القوسين من عندي - النفيسي .

في اطر الاخلاق الفردية والمناقبية المثالية ، لو كانت مهمته هي تلك لما ارسل طلحة بن عبيد الله في نفر من أصحابه وامره أن يحرق — بالمعنى الحرفي للكلمة — بيت سويلم على من فيه حيث يجتمع بعض المنافقين الذين كانوا يثبطون الناس عن رسول الله في غزوة تبوك .

ولو كانت مهمته — عليه الصلاة والسلام — مناقبية أو رواقية أو مثالية لما غزا وقاتل سبعا وعشرين غزوة : غزوة ودان — وغزوة بواط ، غزوة العشيرة ، غزوة بدر الاولى ، غزوة بدر الكبرى ، غزوة بني سليم ، غزوة السوق ، غزوة غطفان ، غزوة بحران ، غزوة احد ، غزوة حمراء الاسد ، غزوة بني النضير ، غزوة ذات الرفاع ، غزوة بدر الآخرة ، غزوة دومة الجندل ، غزوة الخندق ، غزوة بني قريظة ، غزوة بني لحيان ، غزوة ذي قرد ، غزوة بني المصطلق ، غزوة الحديبية ، غزوة خيبر ، غزوة الفتح ، غزوة حنين ، غزوة الطائف ، أخيرا غزوة تبوك .

قاتل منها في تسع غزوات : بدر واحد ، والخندق ، وقريظة ، والمصطلق وخيبر ، والفتح ، وحنين والطائف (١) . لو كان محمد فقط داعية اصلاحيا لما لقي ما لقيه يوم احد : فمعتبة بن أبي وقاص رماه فكسر ربابيته اليمنى السفلى وجرح شفته السفلى ، وعبد الله بن شهاب الزهري شجه في جبهته ، وابن قمئة جرح وجنته فدخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنته ... الخ (٢) . لو كانت بعثته فلسفة اشراقية لما فعل كل ذلك او لقي كل ذلك عليه الصلاة والسلام .

✽ شأن محمد والاسلام اكبر واخطر واعظم من كل التصورات العادية المبتوثة في اذهان الناس العاديين . لقد كان اعلانا عاما « لتحريز الانسان في الارض لم يكن اعلانا نظريا فلسفيا سلبييا ، انما كان اعلانا حركيا واقعييا ايجابيا ، اعلانا يراد له التحقيق العملي في صورة نظام يحكم البشر بشريعة الله ، ويخرجهم بالفعل من العبودية للعباد الى العبودية لله وحده بلا شريك ومن ثم لم يكن بد من أن يتخذ شكل (الحركة) الى جانب شكل (البيان) ذلك ليواجه الواقع البشري بكل جوانبه بوسائل مكافئة لكل جوانبه » لذلك كان للقرآن موضوع Subject وبحث رئيسي Thesis وهدف (٣) Target أما موضوعه فهو : الانسان ومدار وجوديته . وأما بحثه الرئيسي فهو : أن النظريات التي وضعها الانسان وتقديراته الخيالية وخضوعه لسلطان الاهواء ثم المواقف التي اتخذها على أساس من تلك النظريات ، كلها في حقيقتها باطلة ومهلكة للانسان نفسه من ناحية المصير . وانما الحق هو الذي علمه الله الانسان حين جعله خليفة له في الارض . وبموجب ذلك الحق ليس من منهج

من المناهج يقوم على الصحة ويتوصل الى العاقبة الا المنهج المطروح في القرآن . واما هدفه : فهو دعوة الانسان الى هذا المنهج الصحيح . والذي يدرس القرآن واضعاً هذه النقاط الثلاث الاساسية امام عينيه يتبين له بدون ما غموض ، ان هذا الكتاب لم يحد من موضوعه الرئيسي وبحثه الرئيسي وهدفه الرئيسي (٤) . **لقد أدركت الجاهلية يومها بان الدعوة الجديدة جذرية في رؤيتها للاشياء والامور وبأنه من الافضل الاعتراف بذلك : قال عتيبة بن ربيعة لقومه ، « خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم » (٥) .** لقد كانت الجاهلية صادقة مع نفسها حين واجهت الدعوة الجديدة ، ولم تحاول ان تدس رأسها في التراب وتتجاهل ما يدور في أرضها وما يتوقع ان يزلزل كيانها . فهذا النضر بن الحارث — أحد شياطين قريش — يعترف بالخطر الداهم الذي تمثل في الدعوة الجديدة : « يا معشر قريش ، انه والله قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد ، قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً ، أرضاكم فيكم ، واصدقكم حديثاً ، واعظمكم أمانة ، حتى اذا رأيتم في صدغيه الشيب ، وجاعكم بما جاعكم به ، قتلتم ساحر ، لا والله ما هو بساحر ، لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم ، وقتلتم كاهن ، لا والله ما هو بكاهن ، قد رأينا الكهنة وتخالجهم ، وسمعنا سجعهم ، وقتلتم شاعر ، لا والله ما هو بشاعر ، قد رأينا الشعر وسمعنا أصنافه كلها : هزجه ورجزه ، وقتلتم مجنون ، لا والله ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون فما هو بخنقه ، ولا وسوسته ، ولا تخليطه ، يا معشر قريش ، فانظروا في شأنكم ، فانه والله لقد نزل بكم أمر عظيم (٦) . لو كانت الدعوة الجديدة قضية أخلاقية أو روائية أو تصوفية أو كلامية لما قاتل النضر ما قاله . حقا بميلاد الدعوة قد نزل بالعالم أمر عظيم .

جذرية وحركية الدعوة الجديدة :

* عظمة الدعوة الجديدة تكمن في جذريتها . قوتها تكمن في واقعيتها وحركيتها . أحلى ما في بيانها التاريخي — القرآن — **الوضوح والسطوع** والوثوق من النصر . لم تأت اذن الدعوة الجديدة — وبمفهومها الجذري الواقعي الحركي — **كيما تتعايش مع الامور الجاهلية التي كانت سائدة في بيئة النزول والبعثة — الجزيرة العربية — بل جاءت لتلغى الواقع ذاك وتنشئ واقعا اخر**ا بكافة وجوهه السياسية والاقتصادية والاجتماعية . والجاهلية في نظر الدعوة الجديدة لم تكن تنحصر في كومات الحجر التي تتكون منها أصنام مكة اللات والعزى ومناة وهبل ، بل كانت أساسا الامور الاجتماعية التي انبثقت منها هذه الوثنية . لقد جاءت الدعوة الجديدة لتلغى تلك الامور الاجتماعية وتنشئ اوضاعا تحتية من نمط اخر وجذر اخر كيما تنبثق منها عبادة

جديدة ذات أوجه سياسية واقتصادية واجتماعية . لم تأت الدعوة الجديدة لتقول لعرب الجزيرة لا تعبدوا اثنائي القدور (٧) لتأتي بأثنائي صماء من لون آخر، بل جاءت لتعطى الانسان في الارض تصورا جديدا يعرف من خلاله مركزه في هذا الكون ، وتفسيرا شاملا له وبناء على هذا التصور يتحدد منهج الحياة التي ينبغي ان يعيشها **والنظام السياسي والاقتصادي والاجتماعي الذي يحقق هذا المنهج** . لم تترك الدعوة الجديدة مصيرها للزمن او لتقلبات الوضع القبلي في الجزيرة ، بل تكلمت أولا عن التصور الجديد للكون والانسان والحياة من خلال القرآن المكي ، ثم بعد ان استقرت الحقيقة اليمانية في صدر الجماعة الاسلامية الاولى ، بدا القرآن المدني يعنى بشؤون الدولة الجديدة والشعب الجديد والواقع الجديد : دولة وشعب وواقع الفكرة . ان مقارنة وجيزة بين الواقع المكي والواقع المدني — خاصة في الفترة القريبة لما بعد الهجرة — من حيث السلطة السياسية وتسيير الارزاق والمصالح والتشكيلة الاجتماعية ، يبرز لنا الوجه الجذري والحقيقة الجذرية للدعوة الجديدة . وحدث المؤاخاة بين المهاجرين والانصار يعتبر انقلابا اجتماعيا هز كل قيم واقيسة مكة الجاهلية لم ترق ولن ترق اليه المجتمعات الحديثه في يومنا هذا . الدعوة الجديدة — وهذا يدركه كل من يقرأ القرآن بعناية — كانت تنشئ أمة ذات تصور خاص وثقافة خاصة وبنیان خاص وسياسة خاصة وتسيير اقتصادي خاص وتشكيل اجتماعي خاص ، باختصار أمة متميزة متفردة عن سائر الامم . هذه الامة التي كانت الدعوة الجديدة حريصة على صناعتها منوط بها — حسب النص القرآني — **لا لتعديل الاوضاع في الجزيرة العربية** فحسب ، بل **لقلبها والغاتها في الارض** ، لذلك كانت تعد الامة للقيادة البشرية . ومن يدرس اسباب النزول للآيات القرآنية يلاحظ الارتباط الوثيق بين **الفكرة والحركة** كان القرآن بتعبير آخر لا يقدم للجماعة الاسلامية الاولى **نظرية** — بالمعنى المتعارف عليه في الدراسات الاجتماعية — بقدر ما يصنع **حركة وتنظيما ووعيا بعيد المدى لطبيعة القضية** . ولذلك كان الصحابة لا يستكثرون من قراءة القرآن لانهم كانوا يتلقون منه امرا يوميا وكلما زادت القراءة كبر العبد ، فبعضهم كان يقرأ لا اكثر من عشرة آيات ويمر بكل عمليات المكابدة والمعاناة من اجل ان ينقلها من كونها النظري الى حيزها العملي اليومي . لم تكن قراعتهم للقرآن من اجل الثقافة الباردة والتذوق اللغوي فهذا هدف رخيص في نظر الدعوة الجديدة الجذرية الواقعية الحركية . من اجل هذا نقول بان الدعوة الجديدة ليست دعوة اخلاقية او رواقية او مناقبية او مثالية ، بل هي دعوة جديدة تماما في تصورها للانسان وللكون وللحياة ولكل الاوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية المنبثقة من ذلك التصور .

لقد كانت منهاجا انقلابيا شاملا ، موضوعه الانسان ومداه كل الارض .

طبيعة الاوضاع السياسية في الجزيرة العربية قبل الاسلام :

✽ اذا كانت هذه هي طبيعة الدعوة الجديدة ، فكيف تبدت هذه الطبيعة على الصعيد السياسي في الجزيرة العربية ؟ كيف كانت اوضاع الحكم عند العرب قبل الاسلام ؟ وماذا حدث لهذه الاوضاع بعد بروز الاسلام كقوة سياسية ساحقة ؟ للاجابة على هذه الاسئلة الجوهرية نقول : لم يكن للعرب قبل الاسلام حكومة بالمعنى الذي نعرفه للحكومات الان . لم تكن لهم ادارة منظمة ، لها الشرعية والقوة التي يخضع لها الناس . كانوا بدوا او شبه بدو ينتمون الى قبائل متعددة ومتفرقة . افراد القبيلة تجمعهم رابطة الدم التي تعطي للفرد القبلي حق الاستصراخ بها حين يتعرض للخطر . والقبيلة كانت تعيش في حالة دائمة من النزاع مع القبائل الاخرى ، ولذلك انتشرت الاحلاف بين القبائل . الوحدة السياسية في الجزيرة كانت اذن القبيلة والقبليون لم يكونوا في كل الاحوال يخضعون لرئيسهم ، بل في كثير من الاحيان ما يتمرّد بعضهم ويرفض الانصياع لحكم الرئيس ولا يفضي الخلاف الا من خلال قتاتين : اما بالقوة او بالاحتماء بقبيلة اخرى وهو ما يسمى بالعرف القبلي بحق الدخالة . ولان القبائل كانت وحدات سياسية مستقلة ، كانت البلاد مقسمة الى مناطق نفوذ متعددة (٨) . الغلبة هي التي تحدد من يسيطر واين وكيف والى متى . حتى في داخل التشكيل القيادي للقبيلة لم تكن هناك معايير معينة لنقل السلطة وكان لكل قبيلة عرف وتقاليد خاصة . هذا في اواسط الجزيرة . اما في الحجاز فكانت هناك مراكز ذات حياة سياسية مختلفة بعض الشيء . فكل مدينة من تلك المدن تحكم نفسها وتستقل عن الاخرى تمام الاستقلال ، وهكذا كان الامر في مكة وفي المدينة والطائف (٩) الا ان الداء القبلي استشرى ايضا بالمدن ، ولم يعرف العرب الانتساب الى المدن الا في القرن الثاني الهجري ولناخذ مكة كمثال من حيث مؤسسة الحكم . لم تكن — أم القرى مكة — تحكم من قبل ملك وانما كان الحكم فيها مسندا الى عدة رجال من الاسر الكبيرة قسموا الاعمال العامة بينهم وهي : الحجابة او السدانة ، والسقاية ، والسفارة ، واللواء ، والرفادة ، والندوة ، والخيمة ، والخازنة ، والازلام . وكانت هذه الوظائف تتوزع بين الاسر الكبيرة وفي كثير من الحالات كانوا يتوارثونها . اما الحجابة او السدانة فهي حراسة مفاتيح الكعبة ، والسقاية هي الاشراف على بئر زمزم وسقاية الحاج ، وكانت في يد العباس بن عبد المطلب في وقت فتح مكة . والديات وكان صاحبها اذا احتمل شيئا فسال فيه قريشا صدقوه ، وعند ظهور الرسالة كان يقوم عليها ابو بكر رضي الله عنه . والسفارة كان لصاحبها الحق في البت في مسائل الصلح او الخلافات التي

تنشأ بين قريش وغيرها من القبائل وكان يقوم على هذا المنصب عمر بن الخطاب . واللواء كان صاحبه يعتبر كبير القواد ، ويسير أمام الجماعة في القتال أو التجارة ، وكان يقوم بهذا المنصب في أول الإسلام أبو سفيان . والرفادة هي الاشراف على الضريبة التي تخصص لأطعام الفقراء من الحجاج المقيمين أو المسافرين لانهم كانوا يعتبرونهم ضيوف الله . والندوة كان رئيسها يعتبر كبير المستشارين فلا تصدر عن قريش أية قرارات الا بموافقة . أما الخمية فيقصد بها حراسة قاعة المجلس (الندوة) وهو منصب يبيع لصاحبه الحق في دعوة الجمعية وكان يتولى هذا المنصب خالد بن الوليد من بني مخزوم ابن مرة . والخازنة هي ادارة الاموال العامة وكان هذا المنصب من حق قبيلة بني حسن بن كعب ويقوم به الحارث بن قيس . وأخيرا الازلام هو منصب يعطى لصاحبه الاشراف على السهام التي كان العرب يستقسمون بها للاستشارة لمعرفة رأي الالهة في امر من الامور ، وكان القائم عليها صفوان اخا ابي سفيان بن امية (١٠) . **هذه كانت وظائف الحكم في مكة وهي متقدمة غاية التقدم بالقياس لباقي المراكز في الجزيرة العربية . أما الرياسة فكان يحصل عليها اكبر من يقوم بهذه الوظائف سنا ، وكان اسنهم في أيام النبي عليه الصلاة والسلام هو العباس بن عبد المطلب . أما باقي اجزاء الجزيرة فانتشرت فيها الممالك الصغيرة كانتشار الزعر البري . فنرى مملكة معين وكانت الحكومة في هذه المملكة وراثية كما ورد في نقوشها حيث تنقل السلطة من الاب الى الابن . ومملكة سبأ وهذه ورثت ملك معين ومن اشهر ملوكها الملكة بلقيس التي ورد ذكرها في القرآن ومملكة حمير ومن اشهر ملوكها يوسف ذو نواس وكان يحكم نجران التي كانت تدين بالمسيحية ، غير انه اعتنق اليهودية في اواخر ايامه واضطهد المسيحيين واحرقهم بالنار سنة ٥٣٤ ميلادية وهم الذين ذكرهم القرآن في سورة البروج وسماهم اصحاب الاخدود في قوله تعالى : « قتل اصحاب الاخدود . النار ذات الوقود . اذ هم عليها قعود . وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود . وما نقموا منهم الا ان يؤمنوا بالله العزيز الحميد . الذي له ملك السماوات والارض والله على كل شيء شهيد » . ومملكة الحيرة وقد كان اهلها واسطة بين الفرس والعرب وعلى ايديهم انتقلت الحضارة الفارسية الى بلاد العرب ويرجع تاريخ هذه المملكة الى القرن الثالث الميلادي واستمر الى ظهور الاسلام واخيرا مملكة غسان وقد كان فيها كثير من الحصون والبيع والكنائس وكان ملوكها مشهور عنهم اقتناء الجواري الروميات واخذوا من اللغة اليونانية كثيرا من الكلمات التي لم تكن معروفة قبلهم مثل كلمتي : الكنيسة والراهب . وقد خضعت هذه المملكة للروم حتى جاء الاسلام ووقعت موقعة اليرموك سنة ٣ هجرية فاستولى المسلمون على هذه المملكة العربية (١١) . يلاحظ ان كل مملكة من هذه الممالك تسيطر عليها قبيلة معينة ،**

كما يلاحظ انه لم تكن هناك في الجزيرة العربية حكومة مركزية تميز جانب القانون وتعمل على اقرار النظام في البلاد وكان على صاحب الحق ان يعمل على نوعه بعصبية وقوته . وبلغ من وقاحة بعض حكامهم وتماديهم البالغ في الجبروت والسطو والافعال القهرية ما حكى عن عمليق ملك طسم وجديس انه امر الا تزف فتاة من جديس الى زوجها قبل ان تزف اليه . يقول ابو سعيد نشوان الحميري : « جديس وطسم هما أمتان عظيمتان من الامم الماضية انقضوا فلا بقية لهم ، وجديس أخو ثمود ، وهما ابنا عابر بن أرم بن سام بن نوح ، وطسم بن لاوذ بن سام بن نوح وكانت طسم وجديس يسكنون اليمامة وكان له مهلك من طسم سيىء السيرة ، وكانوا لا يزوجون امرأة من جديس الا بعث اليها ليلة زفافها فافترعها قبل زواجها (١٢) » . وكانت خلال كل ذلك فروق اجتماعية وطبقية ثابتة بين الناس في الجزيرة العربية حيث قسم الناس الى قسمين : الملوك وغير الملوك . ثم يقسمون غير الملوك الى قسمين رئيسيين : اهل مدر واهل وبر واهل المدر الى قسمين : زراع وتجار . الخ قال ابن العبري : « واما سائر عرب الجاهلية بعد الملوك فكانوا طبقتين : اهل مدر واهل وبر . فاما اهل المدر فهم الحواضر وسكان القرى ، وكانوا يحاولون المعيشة من الزرع والنخل والماشية والضرب في الارض للتجارة . واما اهل الوبر فهم قطان الصحارى وكانوا يعيشون من البان الابل ولحومها منتجعين منابت الكلاً ، مرتادين لمواقع القطر ، فيخيّمون هناك ما ساعدهم الخصب وامكنهم الرعي ، ثم يتوجهون لطلب العشب وابتغاء المياه فلا يزالون في حل وترحال (١٣) . وخير ما نختم به هذا الوصف العاجل لطبيعة الاوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية السائدة لدى عرب الجاهلية ما ذكره ابن خلدون في مقدمته يصف فيها احوال العرب قبل الاسلام : « وهم اذا تغلبوا على اوطان اسرع اليها الخراب ، لانهم أمة وحشية ، فينقلون الحجر من المباني ويخربونها لينصبوه اثافي للقدر ، ويخربون السقف ليعمرؤا به خيامهم ، ويتخذوا الاوتاد منه لبيوتهم ، وليس عندهم في اخذ اموال الناس حد ينتهون اليه وليست لهم عناية بالاحكام وزجر الناس عن المفاسد ، انما همهمها ياخذونه من اموال الناس نهبا او مغرما ، فاذا توصلوا الى ذلك اعرضوا عما بعده من تسديد احوالهم والنظر في مصالحهم ، وهم متنافسون في الرياسة وقتل ان يسلم واحد منهم الامر لغيره ولو كان اباه او اخاه او كبير عشيرته الا في القليل ، فيتعدد الحكام منهم والامراء وتختلف الايدي على الرعية في الجباية والاحكام ، فيفسد العمران وينتقض » . ورغم كل ذلك واكثر الا ان ابن خلدون يستدرك ويقول أيضا : « وهم مع ذلك اسرع الناس قبولا للحق والهدى ، لسلامة طباعهم من عوج الملكات ، وبراعتها من ذميم الاخلاق ، الا ما كان خلق التوحش القريب المعاناة ، المتهيء لقبول الخير » .

الاسلام كنقيض مباشر للجاهلية :

✽ تلك كاذبة تطبيعة الاوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية في جزيرة العرب قبل الاسلام ، فكيف تبدى الاسلام عليها باعتباره القوة السياسية المنظمة الجديدة ؟ ماذا كان موقفه من تلك الاوضاع ؟ وما هي سبله في معالجتها ؟ وهل كانت معالجاته جذرية تنحو نحو الالفاء الكامل للجاهلية السياسية والاجتماعية والاقتصادية أم لا تمنع التعايش معها ؟ في غضون الاجابة على هذه الاسئلة ينبغي تحديد المنهج السليم الذي يؤدي اليها . نقصد بذلك اننا لا ينبغي ان نستحضر امامنا انحرافا معيناً من انحرافات الواقع الاسلامي او حتى الفكر الاسلامي ثم ندعه يستغرق اهتمامنا كله ، بحيث يصبح الرد عليه وتصحيحه هو المحرك الكلي لنا . ذلك ان استحضار انحراف معين او نقص معين والاستغراق في دفعه منهج شديد الخطر وله معقاته في انشاء انحرافات جديدة لدفع انحرافات قديمة والانحراف انحراف على كل حال (١٤) اذا وضعنا ذلك المنهج نصب اعيننا وانتبهنا الى المسار العريض الذي سارت عليه الدعوة الجديدة في معالجاتها للجاهلية السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي واجهتها ، سنصل باذن الله للاجوبة الصحيحة التي طرحناها في صدر الفقرة هذه . بداءة نقول بان معالجات الاسلام كانت تتصف بالشمول والجذرية والواقعية . اما الشمول فنقصد به ان رسول الله وصحابته والجماعة الاسلامية الاولى واجهوا الواقع الجاهلي بكل صفاته ونواحيه وطرحوا حلولاً لكل مشاكله وقضاياها واتصفت هذه الحلول بالجذرية والواقعية . اما الجذرية فنقصد بها ان الحلول الاسلامية كانت انقلابية في محتواها وعلى المدى البعيد سواء ما يتعلق منها بملكية الارض او المال او قوة العمل او المبادئ السياسية الاساسية التي طرحها القرآن كبديل ونقيض لجمل الوضع الجاهلي . ورغم ان الحلول التي طرحها الاسلام كانت جذرية الا انها لم تكن متعسفة ولا بعيدة عن قبول الانسان ذي الفطرة السليمة وطرحت بشكل وبأسلوب غاية في المدقة والتخطيط والمقولة بحيث اصبح عتاة الجاهلية المكية بعدها يتسابقون في الانضواء تحت اللواء الاخضر الجديد الذي يقرر على رؤوس الاشهاد بان **الحاكمية والسلطة وحق التشريع لله وحده** . والان لنحاول الاجابة على الاسئلة المثبتة في صدر الفقرة هذه .

القضاء على القبيلة من خلال التوطين :

✽ بداءة يلاحظ ان الرسول اراد ان يقضي على القبيلة باعتبارها الوحدة السياسية المرتكزة على رابطة الدم ، من خلال التأكيد على معنى الامية التي رابطتها الايمان بالفكرة والدعوة الاسلامية . هنا طرح بديلاً لرابطة الدم

معقولا ومقبولا لدى معظم الناس وخاصة الاكثرية الضعيفة والمعدمة . زيادة على ذلك كان يدرك — عليه الصلاة والسلام — ان استيطان القبلي وربطه بموطن معين وتشجيعه على الحرفة والعمل والحؤول دون ارتحاله المستمر من شأنه ان يضعف الوشيجة القبلية وبالتالي يسهل من احلال رابطة الايمان بالدعوة الجديدة محل رابطة الدم . عليه بدأ الرسول بتشجيع الزراعة وتحرير الماء والكلاء والنار من سيطرة الراسمالية التجارية في مكة (١٥) . وحرص كذلك على تحديد ملكيات الارض وتحجيرها . يروى ابو يوسف في كتاب « الخراج » حديثا عن رسول الله (ص) رواه عن طاوس حيث يقول : « ليس لاحتجر حق بعد ثلاث سنين (١٦) » وبهذا يكون الرسول (ص) قد حدد مدة ثلاث سنين يحتفظ فيها المحتجر بحقه في عدم قيام غيره بتحجير الارض حجيرها او احيائها . اما بعد انقضاء هذه المدة الكافية للبدء في احياء الارض الموات ، دون القيام به ، فان ذلك يؤدي الى تعطيل احياء الارض ، بواسطة القادرين على هذا احياء دون مبرر . كذلك شجع الرسول (ص) على احياء الارض الموات بقوله : « من احيا أرضا ميتة فله رقبته ، وليس لعرق ظالم حق » (١٧) ويضع هذا الحديث قاعدتين قانونيتين هامتين : اولاهما تقضي بأن من يصلح أرضا ميتة ويزرعها يصبح مالكا لها . واما القاعدة الثانية فتقضي أن من يفتصب أرضا أحيائها غيره يعتبر ظالما ، ولا يكون له الحق فيها ، بل يجب أن يجبر على تركها لمن أحيائها فأصبح بذلك مالكا لها . وعندما جاءت الدعوة الجديدة ، كان العرب قبلها يحمون بعض أراضي المراعي . وكان هذا الحمى يقوم على أساس القوة والغلبة فكلما قويت القبيلة كلما كانت أراضي حماها أكبر وأشسع فقال رسول الله (ص) : « لا حمى الا لله ولرسوله » وذلك يعني ان الحمى يجب ان يقوم على الملكية الجماعية للناس جميعا ، لا للاقوياء دون الضعفاء (١٨) وهناك كثير من مثل هذه الاحاديث البليغة المعنى التي تحت المسلمين على احياء الارض والاعتناء بها كوسيلة هامة من وسائل الانتاج على ان تكون المحصلة النهائية في كل ذلك المصلحة الجماعية لا فقط المصلحة الخاصة بذلك نستخلص القواعد الخمس الهامة التي وضعها الرسول (ص) فيما يتعلق بملكية الاراضي والماء سواء كان للشرب او لري الارض :

- ١ — حق تملك الارض الميتة بمجرد احيائها .
- ٢ — رعي الماشية في المراعي مباح للناس جميعا وهذا خاص بالمراعي غير المملوكة ملكية خاصة .
- ٣ — بناء على حكم الرسول (ص) في مهزور وادي بني قريظة ان الماء الى العقبين لا يجبسه الاعلى على الاسفل او يجبسه الاسفل على الاعلى ،

وبذلك وضع الرسول (ص) حدا لاحتجاز الماء .

٤ — تحديد حرم البئر بأربعين ذراعا من نواحيها كلها لاعطان الابل والغنم .

٥ — من زرع في ملك غيره بغير اذنه فليس له الا ما انفق (١٩) .

جاءت التدابير الاسلامية المنكورة كضربة موجعة للراسمالية العقارية

التي كانت تتحكم بأراضي شاسعة نظرا لما لها من عصبية قبلية وغلبة وقهر حتى عهد قريب بل وفي خلال الايام الاولى للدعوة — وكانت تنتقل من محنة لآخرى — سيطرت الراسمالية العقارية المسنودة قبلها على آبار ومراعي كثيرة وشاسعة ومن خلال تدابير مغللة في الظلم والاستبداد والقهر كقضية « الحمى » فكانت بعض القبائل القوية تحيط بمساحات هائلة من الاراضي الخصبة بحجة انها مراعي خاصة لخيولها ومواشيها بينما في كثير من الاحيان كانت هذه الاراضي تتداول بين المتولين من اقطاب الراسمالية العقارية ويحرم منها الفرد الضعيف قبلها رغم انه يمثل الاكثرية وكانت بعض القبائل القوية تحبس الماء عن القبائل الضعيفة فتضطر الاخيرة الى مغادرة مضاربها والارتحال الى حيث تجد الماء ، فتتوجه القبيلة الحابسة للماء بالاستيلاء على المراعي المهجورة . وكانت كثير من القبائل المتمتعة بعصبية وغلبة ومنعة تحتل أراضي شاسعة حول آبارها بحجة انها اعطان لابلها وغنمها هذه المساحات المحيطة بالآبار تسمى « حريم » البئر ومغردها حرم البئر . جاءت اذن التدابير الاسلامية بشأن الارض كوسيلة هامة من وسائل الانتاج — خاصة في الجزيرة العربية حيث يندر الماء والكلأ — فتخلصت من نفوذ الراسمالية العقارية التي كانت تتمثل بكبار القبائل وخاصة قريش وادت الى اهتمام واسع بعمليات الاستيطان والاهتمام بالزراعة وحفر مزيد من الابار ونشوء مصالح جديدة لاوسع قطاع من سكان الجزيرة . لقد انتهت هذه التدابير عهودا غابرة اعتمدت فيها الراسمالية العقارية على الغلبة والقهر والعصبية القبلية حيث كانت الجزيرة العربية وخاصة مراكزها السكانية تحكم التجارة والسمة المركنتيلية كل العلاقات الاجتماعية . ولقد ادخلت هذه التدابير بشأن ملكية الارض والماء والكلأ قيما جديدة لمجتمع الجزيرة لم يكن له بها عهد مثل القانون والسلطة المركزية وحق الفرد الضعيف واهمية كل ذلك من اجل استقرار المعيشة . بدون شك كانت هذه التدابير من الاهمية بمكان ليس فقط في القضاء على التنفذ القبلي ، بل حتى على مسيرة الاسلام فيما بعد ، حيث تبين للكل الاتجاه الجماعي للدعوة الجديدة والفاتها الجذري لقيم التملك البائدة في عصر عرب الجاهلية .

نظرة الدعوة الجديدة للحرف والعمل :

عندما جاءت الدعوة الجديدة كانت الكلمة تحتل مساحة كبيرة من اهتمامات العرب . وكان لكل قبيلة شاعرا يبيع كلمتها في سوق عكاظ ، أما مفاخرها أو هاجيا . في غضون ذلك ضاعت كثير من الحقوق وسادت كثير من المظالم وتكرش الكثير من الشعراء . ومن يراجع الشعر الجاهلي ويدرسه كقيمة سياسية واقتصادية واجتماعية ، — لا كفن أدبي — يدرك ذلك تمام الإدراك . وجاءت الدعوة الجديدة لتلغي كل ذلك وتحاول أن تبني حضارة جديدة تقوم على العمل لا الكلمة وتطرح في برنامجها عاملا لا شاعرا . وتلك قيمة جديدة في وسط الجزيرة الانساني . كان العرب قبل الاسلام يعتمدون في حياتهم على الرعى والصيد والنهب والسلب ، وحراسة القوافل التجارية، وكانوا يعترفون بل يتباهون في اشعارهم ببعض هذه الاعمال كالنهب والسلب، ويزدرون سائر الحرف كالزراعة والصناعة والملاحة والتجارة . وقد اشتغل اهل الحضر — وهم قلة — بما انف منه اهل البادية — وهم الاكثرية — في الجزيرة العربية ، فكان منهم الزراع كأهل المدينة والتجارة كأهل مكة . غير أنه بمعنى أشمل ظلت كثير من المهن والحرف مزدارة يعمر بها أصحابها كأنها هي وصمة عار . فالتيميون — بني يثيم — كانوا يعيرون الازديين بأنهم بحارة لان أبناء عمومتهم في عمان كانوا يشتغلون بالملاحة (٢٠) والقرشيون كانوا يحتقرون اهل المدينة لانهم زراع . وحين لقي أبو جهل مصرعه في غزوة بدر ، لم يأسف على مقتله بقدر ما أسف على انتهاء حياته بيد المسلم الاكار اذ يقول وهو يلفظ أنفاسه الاخيرة : « فلو غير أكار قتلني » والاكار الزراع « أراد به احتقاره وانتقاصه — كما يقول ابن الاثير — كيف مثله (الاكار) يقتل مثله (أبو جهل) (٢١) » كذلك قال أبو جهل عندما ارتقى ابن مسعود — وهو أحد الصحابة — عنقه : « لقد ارتقيت مرتقى صعبا يا رومي الغنم » (٢٢) وهو قول يعكس احتقار أبي جهل للاجارة على رعي الغنم وما أشبهه من الاجارات، مثله في ذلك كمثل ما يسمون باشراف العرب جميعا ، ولم يعلم بأن الرسول(ص) كان يرعى غنم أهل مكة مقابل بضع قراريط (٢٣) . بجانب احتقارهم للعمل والمهن والحرف ، كانت العرب تبجل الشعراء الذين يمدحون ويهجون وفي كل واد يهيمون .

وجاءت الدعوة الجديدة لتحديث انقلابا في القيم الاجتماعية وتلغي الغاء سائر القيم الجاهلية المتعلقة بالعمل والعمال كيف لا وصاحبها لا يرى الغنم على قراريط وهو ابن امرأة كانت تاكل القديد . جاءت الدعوة الجديدة بتصور جديد للعمل والعمال والحرف والصناعات والزراعة بل وحتى للشعر (٢٤) حيث طمحت أن تحوله الى أداة للتغيير نحو مجتمع أفضل في الجزيرة لا أداة

قبليّة بيد من يتمصلحون من وراء تثليج الوضع الجاهلي وتثبيته . لم تقل الدعوة الجديدة بأن العمل كرامة فحسب بل رفعته الى مستوى العبادة والجهاد في سبيل الله خاصة . قال الصحابة وقد راوا شابا قويا يسرع الى عمله : لو كان هذا في سبيل الله . فيقول عليه السلام : لا تقولوا هذا ، فانه ان كان خرج يسعى على ولده صغارا فهو سبيل الله ، وان كان خرج يسعى على ابوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله ، وان كان خرج يسعى على نفسه يعفها فهو في سبيل الله (٢٥) واکرمتم الدعوة الجديدة في دستورها — القرآن — العمل في آيات كثيرة واقترن العمل في كثير من السور بالصلاة : « فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في الارض وابتغوا من فضل الله » . (سورة الجمعة . ١) ، وقد خفف الله سبحانه وتعالى عن رسوله ومن اقتدى به من المسلمين ، اعباء قيام الليل لاسباب منها : الا يرهق التعب البعض ليلا فيقعدهم عن طلب الرزق نهارا وفي هذا تقول الآية : « ان ريك يعلم انك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه ، وطائفة من الذين معك ، والله يقدر الليل والنهار علم ان لن تحصوه فتاب عليكم ، فاقروا ما تيسر من القرآن ، علم ان سيكون منكم مرضى ، وآخرون يضربون في الارض يبتغون من فضل الله وآخرون يتأملون في سبيل الله . . . » (سورة المزمل ٢٠) ويروى ابن تيمية في كتابه الام ، « السياسة الشرعية » هذه الحادثة التي تدل دلالة واضحة ان الدعوة الجديدة غيرت الكثير من مفاهيم وقيم العرب حول **الاجارة والحكم** يقول : دخل ابو مسلم الخولاني على معاوية بن ابي سفيان فقال : السلام عليك ايها الاجير ، فقالوا : قل السلام عليك ايها الامير ، فقال ، السلام عليك ايها الاجير فقالوا : قل ايها الامير ، فقال معاوية : دعوا ابا مسلم ، فانه اعلم بما يقول . فقال ابو مسلم : انما انت اجير استأجرك رب هذه الغنم لرعايتها ، فان انت هنأت جرباها وداويت مرضاها ، وحبست اولاها على آخرها وفاك سيدك أجرك ، وان انت لم تهنأ جرباها ، ولم تداو مرضاها ، ولم تحبس اولاها على آخرها ، عاقبك سيدها (٢٦) . فبعد ان كان الاجير يعمر في الجاهلية ، واذا بالحاكم نفسه يوصف بهذه الصفة . ولقد كان الرسول (ص) في كل مناسبة يؤكد احترام الدعوة الجديدة للعمل والحرفة والعمال ولا يستنكف — كما فعل ارباب الجاهلية — عن القيام بأوضاع الاعمال : فكان يفرس النخل بيديه ويرقع ثوبه ، ويخصف نعله ، ويحلب شاته ، ويعقل بعيره ، ويعلف ناضحه ويخدم ضيوفه بنفسه ، بل ويخدم خدمه ، حتى ليقول أنس : خدمته (اي رسول الله) نحو من عشر سنين فوالله ما صحبتته في سفر ولا حضر لخدمته الا وكانت خدمته لي اكثر من خدمتي له (٢٧) . ولقد أكد القرآن — دستور الدعوة الجديدة — بأن كل انبياء الله ورسله كانوا من اصحاب الحرف ومن

يبيعون قوة عملهم ، اذ عمل زكريا نجارا ، وعمل داود زرادا وعمل موسى اجيرا ، وكل رعى الغنم كما اشار الرسول (ص) في بعض احاديثه وكل مشى في الاسواق كما اشار القرآن . وكذلك عمل الاعلام من اصحاب الرسول (ص) حتى سارع ابو بكر الى السوق صبيحة يوم استخلافه ، وعلى راسه اثواب يريد ان يتجر فيها ، وقد كاد يفعل ، لولا ان منعه عمر وابو عبيدة ليفرغ لامور المسلمين ، اذ قال له : كيف تصنع هذا وقد وليت امور المسلمين قال : فمن اين اطعم عيالي ؟ قالوا : نفرض لك ، ففرضوا له كل يوم شطر شاه رضي الله عنه وارضاه (٢٨) . ومن هذه الحادثة يتبين ان ابو بكر ولي الخلافة ولم تكن له مخصصات لاطعام عياله وانه مطالب بأن يضرب في الارض كما يفعل غيره ، ولهذا دلالات كبيرة فيما يخص الدعوة للعمل . كذلك لم يستنكف علي بن ابي طالب — كرم الله وجهه — وهو ابن عم الرسول (ص) وزوج ابنته ، ان يعمل اجيرا عند يهودي لقاء ثمرات معدودات ، فقد روى ابن ماجة عن ابن عباس قال : اصاب نبي الله صلى الله عليه وسلم خصاصة ، فبلغ ذلك عليا ، فخرج يلتمس عملا يصيب فيه شيئا ليغيث به رسول الله (ص) فأتى بستانا لرجل يهودي ، فاستسقى له سبعة عشر دلو ، كل دلو بثرة ، فخيره اليهودي من ثمرة سبع عشرة عجوة ، فجاء بها الى النبي صلى الله عليه وسلم (٢٩) . وكان الرسول (ص) يأبى ان يعطى السائل ، بل يدلّه على عمل يرتزق منه . وفي هذا يقول انس : ان رجلا من الانصار اتى النبي (ص) فسأله ، فقال : اما في بيتك شيء ؟ قال : بلى ، جلس نلبس بعضه ونبسط بعضه وقعب نشرب فيه الماء . قال : ائتني بهما ، فاتاه بهما ، فأخذها الرسول (ص) بيده وقال : من يشتري مني هذين ؟ قال رجل : انا آخذهما بدرهم . قال الرسول (ص) : من يزيد على درهم مرتين او ثلاثة . قال رجل : انا آخذهما بدرهمين ، فأعطاهما اياه ، فأخذ الدرهمين فأعطاهما الانصاري ، وقال له : اشتر بأحدهما طعاما فانبذه الى اهلك واشتر بالآخر قدوما فائتني به ، فأتا به ، فشد فيه رسول الله (ص) عودا بيده ، ثم قال : اذهب فاحتطب وبع ولا اريك خمسة عشر يوما ، ففعل فجاء وقد اصاب عشرة دراهم فاشترى به مضها ثوبا وببضعها طعاما ، فقال له رسول الله (ص) : هذا خير لك من ان تجيء المسألة نكتة في وجهك يوم القيامة (٣٠) . حتى حرفة كنس العذرة اي تنظيف الغائط ومواضع قضاء الحاجة كتب عنها الفقهاء بأنها ضرورة اجتماعية لا بد ان يقوم بها أحد من المسلمين ، يقول الكاساني : « ويجوز الاستئجار لنقل الجيف والنجاسات ، لان فيه دفع اذيتها عن الناس ، فلو لم تجز لتضرر بها الناس » (٣١) ومن الامور الطريفة في الفقه الاسلامي وعلوم الحديث ومصطلحه هو خلاف الفقهاء حول الاستئجار لحمل الخمر . فبعض الفقهاء يعتبرون الاجارة

لحمل الخمر (كمهنة أو كحرفة) انها لا تصح وحجة هؤلاء — ومنهم مالك والشافعي وأبو يوسف وأحمد — أن حمل الخمر معصية لكونه اعانه على معصية ويستشهدون بقول الله : « الا أن أبو حنيفة يرى أن الاجارة بهذا الشأن صحيحة ، الا أن يحملها العامل بنية الشرب ، فلا يجوز وحجة أبو حنيفة أن ننس الحمل ليس بمعصية ، بدليل أن حملها للاراقة مباح ، وليس الحمل بذاته من ضرورات الشرب . فأما الحديث الذي لعن فيه الرسول (ص) حامل الخمر ، فقد فسره أبو حنيفة على الحمل بنية الشرب (٣٢) . وتعددت الآراء في هذا الشأن ، ولستنا في موقع يعلم الفقه حقيقة العلم لاتخاذ موقف بصدد المطروح ، ولكنني طرحت هذه المسألة من باب اهتمام الفقهاء المفصل بمسألة العمل والعمال والاجارة وحرصهم على أن يأخذ الاجير أجره الذي يستحقه بدون ما تغطيته أو تحايل . ولقد كتب كثير من الفقهاء حول مسألة العمل والحرف والعمال وتأکید أهمية الموضوع اسلاميا ومنهم الشوكاني في « نيل الاوطار » ، وابن القيم في « اعلام الموقعين » ، وابن حنبل في « المسند » ، والسيوطي في « الاشباه والنظائر » ، والقرافي في « الفروق » ، والجصاص في « احكام القرآن » ، وابن تيميه في « اقتضاء الصراط المستقيم » ، وابن قدامة في « المغني » ، وأخيرا وليس آخرا أبو يوسف في « الخراج » . وخلاصة ما نريد أن نذهب اليه هو أن الدعوة الجديدة من خلال دستورها — القرآن — ومن خلال داعيتها الاول الرسول (ص) ألغت ونقضت المفهوم العربي الجاهلي للعمل والحرفة والعمال ونزعت من المجتمع الاسلامي ترسبات أبو جهل العربية ونفسية القبيلة المريضة التي كانت سائدة قبل مجيء الدعوة . وباختصار كانت الدعوة الجديدة بصدد بناء حضارة جديدة تقوم اساسا على دعامة العمل ومن خلال العامل وتلغى حضارة الكلمة التي تقوم اساسا على الشاعر وشتان بين الحضارتين في ميزان التاريخ .

دولة الفكرة

وقيم الاسلام السياسية الجديدة :

ان الواقع السياسي الذي كانت تعيشه الجزيرة العربية وكذلك العرب في اطرافها ، كان واقعا يركز على الوحدة السياسية آنذاك وهي القبيلة ، ووشيجه واحدة تتمحور حولها الاحلاف القبلية هي رابطة الدم ، وههدف استراتيجي واحد وهو تحقيق الغلبة والنصر والقهر . في غضون كل ذلك سحقت مصالح الناس العاديين والمستضعفين غير المسنودين ولا المتحالفين قبليا . وكان التصور العام للسلطة السياسية التي يمثلها رئيس القبيلة

ومجلسها ، تصور يتلاقى وهدف الغلبة والنصر والقهر . وجاءت الدعوة الجديدة لتلغي كل ذلك وتطرح من خلال دستورها — القرآن — ومن خلال التجمع الحركي المنظم الذي أنشأه الرسول (ص) قيما ومفاهيم سياسية جديدة على العرب . فبدلا من القبيلة طرحت الدعوة الجديدة مفهوم الأمة ، والماء لرابطة الدم أسست رابطة العقيدة ، ومحوا لهدف الغلبة والنصر والقهر طرحت هدف تحقيق الشريعة . ان نظرة وجيزة للمصطلحات الجاهلية الثلاثة ومقارنتها بالمصطلحات الاسلامية البديلة لها ، وان تنفسا مختصرا لطبيعة البدائل الاسلامية ، يقضي بنا الى تلك البدائل التي كانت حضارية ومتقدمة جدا اذا ما قورنت بما كان عليه الحال قبل البعثة . ان المجتمع السياسي التي كانت الدعوة الجديدة بصدد صناعته يختلف جذريا من حيث ماهيته وطبيعته وهدفه وتصوره وعلاقاته وشتى نواحي وجوده السياسي عن المجتمع الجاهلي الذي سبقه . انه مجتمع لم تمعه الجزيرة قط في كل اطوارها ومراحلها التاريخية ، مجتمع الفكرة تدير شؤونه دولة الفكرة . هذه الدولة التي قامت سنة ٦٢٢ م كانت دولة عالمية (اممية) ، كما كانت دولة منهجية ايدولوجية على اساس من الواقع التاريخي الامين . تضمنت مهاجرين من مكة ، لكن هؤلاء المهاجرين لم يكونوا من الضعف بحيث يكونون مجرد لاجئين ، ولا من القوة بحيث يكونون فاتحين . وتضمنت انصارا من يثرب لكنهم في عددهم المحصور وقوتهم المحدودة لم يكونوا جبهة غالبية كاسحة ، بل كان يتربص بهم خطر مخالفهم داخل مدينتهم وخطر مكة وقريش وقد اوا طريدها . ومن هنا وجد المناخ الصالح لقيام الدولة العالمية نتيجة حتمية لقيامها على الاساس الايدولوجي (٣٣) انها دولة عالمية في عناصر تركيبها ووثائق تأسيسها ، كما هي عالمية في اصولها ومبادئها الفكرية العقائدية العامة . ما كاد الرسول (ص) يستقر في المدينة وما كاد العام الاول من هجرته اليها ينتهي حتى وضع دستورا لتظلم الحياة العامة هناك ، وتحديد لعلاقات بينها وبين جيرانها ويدل هذا الدستور على مقدرة فائقة من الناحية التشريعية وعلى علم كبير باحوال الناس وفهم لظروفهم ، وقد عرف هذا الدستور بالصحيفة (٣٤) . اما اطراف هذه الصحيفة ثلاثة : المهاجرين ، والانصار ، ويهود يثرب ومن الغني عن البيان انه لا نستطيع ان نفهم وضع الدولة في الدعوة الاسلامية في اطوارها الاولى الا من خلال الاستعانة بهذه الصحيفة التي هي الدستور المكتوب لدولة الرسول في المدينة ولا نكاد نعرف من قبل دولة قامت منذ اول امرها على اساس دستور مكتوب غير هذه الدولة الاسلامية ، فانما تقوم الدول اولا ثم يتطور امرها الى وضع الدستور . (٣٥)

الصحيفة :

يلاحظ من قراءة النص أن أسلوبها وافق تماما أسلوب العصر والفترة التي كتبت فيها . ويوافق روح التنظيم في المجتمع العربي من حيث الترابط القبلي والاعتراف بقوة العصبية واثرها في المجتمع وأنه ليس من السهل — على الأقل في ضوء ظروف كتابة الصحيفة — التخلص منها . « وقد بدا واضحا في الصحيفة أن البطون والعشائر ادخلت في النظام الجديد بشخصياتها القبلية لا بأفرادها . وهذا ما كان يجري عليه المجتمع العربي في تكوينه في ذلك الوقت . ثم انها توافق تشكيل المجتمع في المدينة من حيث أقسام القبائل وبطونها وارتباطاتها الحلقية (٣٦) . » ورغم أن الصحيفة قد جاءت ببعض المصطلحات الجزرية العقائدية إلا أنها أيضا تحلت بقدر كبير من الواقعية ومعرفة المفارق الأساسية بين عالم الممكن وعالم المستحيل في ضوء تلك الظروف التاريخية العصبية التي عايشتها الدعوة . فهي — أي الصحيفة — توافق القرآن الكريم في مبادئها العامة من حيث اعتبار المسلمين أمة واحدة من دون الناس ، ومن حيث التراحم والتعاون بينهم ومعاونة بعضهم بعضا ، ومن حيث الاحتفاظ برابطة الولاء وما يترتب عليها من حقوق الموالاة ، ثم من حيث مراعاة حقوق القرابة والصحة والجوار . كذلك تحدد المسؤولية الشخصية والبعد عن ثارات الجاهلية وحميتها . كذلك وافقت الصحيفة القرآن في وجوب الخضوع للقانون ورد الأمر إلى الدولة بأجهزتها للتصرف في الأمور . وفي شؤون الحرب والسلام ، وإن حرب الأفراد وسلمهم إنما تدخل في الاختصاص العام فلا تحدث فرديا . كذلك معاونة الدولة في إقرار النظام والأخذ على يد الظالم وعدم نصر المحدث أو أيوانه (٣٧) . ولقد أفرد الرسول (ص) قسما من الصحيفة لتحديد وتعريف العلاقة بين دولة الفكرة وقطاعا من قطاعاتها السكاتية غير المؤمنة بالدعوة يتضح من خلالها تسامحا كبيرا عجز اليهود أن يكونوا في مستواه على مدى التاريخ : « وإن اليهود لينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين . وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم فاته لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته . وإن لليهود بني النجار . . » يلاحظ أن الرسول (ص) ذكر فقط اليهود الموالين للبطون العربية وأهمل ذكر القبائل الكبرى من اليهود وهي ثلاث (بني النضير ، بني قريظة ، وبني قينقاع) والتي كانت تناصبه (ص) العداء آنذاك . ويلاحظ كذلك أن الرسول (ص) أعطى صفة للجماعة الإسلامية (صفة أمة واحدة من دون الناس) . والامة التي عناها الرسول (ص) لها منطقة من الأرض اجمالية ، وهي منطقة المدينة ، وكل هذه المنطقة ينبغي أن تكون حرما وأرض سلام لا يعتدي فيها أحد على أحد ، والامة لذلك لا تشمل — في مفهوم

الرسول (ص) — على المؤمنين وحدهم ، بل هي تتألف من كل من يتبعهم ويحارب معهم أي من كل أهل المدينة ، وكان بين الانتصار قوم لم يسلموا ولكنهم لم يستبعدوا من الامة بل اُمنجوا فيها بنص صريح ، وكذلك اليهود شملتهم الامة ، وان كانوا لا ينتمون اليها انتماء وثيقا كالمهاجرين والانتصار ، ولذلك لم تكن تقع عليهم نفس الواجبات وليس لهم نفس الحقوق (٢٨) . ومن اهم نتائج الصحيفة — خاصة في ضوء الظرف القبلي السائد آنذاك — تنازل القبائل عن حق الاخذ بالثأر فيما بينها :

« وانكم مهما اختلفتم فيه من شيء فان مرده الى الله عز وجل والى محمد صلى الله عليه وسلم وانه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث او اشتجار يخاف فساده فان مرده الى الله عز وجل والى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم » . هنا يحاول الرسول (ص) تأسيس سلطة مركزية لا قبلية يرجع اليها عند الخلاف كما يحاول وضع حد للتشتت القبلي الذي اصاب العرب في جاهليتهم . وعلى هذا لم يصبح الثأر أمرا يتحول الى ثأر يجر ثأرا كما كانت الحال في القبائل العربية من قبل حيث لم تكن هناك سلطة لها قوة اقهر ، اما في المدينة فقد نفذ مبدأ العقاب والاقتصاص من الفرد الى الجماعة حدثت خطوة هامة في سبيل تعزيز السلطة المركزية في المدينة ، وهذا امر جديد جدا على عرب الجزيرة . الامر الثاني الذي عني به رسول الله (ص) في الصحيفة هو رص الجبهة الداخلية لمواجهة الاعداء خارج المدينة فاكّد ان : « المؤمنين المتقين أيديهم على كل من بغى منهم ، او ابتغى دسيعة ظلم او اثما ، او عدوانا ، او فسادا بين المؤمنين ، وان أيديهم عليه جميعا ولو كان ولد احدهم » .

بعد ان وضع الرسول (ص) من خلال الصحيفة تخطيطا عاما للامة الجديدة ، حصر مهمته في الدفاع عن حدود الدولة الجديدة وضمان الامن لها . كان الرسول (ص) بحاجة لتوسيع قاعدته البشرية وتكثيف السكان في المدينة ، لذلك اعتبرت الهجرة الى المدينة أساسا للحصول على حق الرعوية للدولة ، فمن يدخل في الاسلام عليه ان يهاجر الى يثرب وقد نزل القرآن بنص صريح في ذلك : « والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا وان استنصروكم في الدين فمليكم النصر الا على قوم بينكم وبينهم ميثاق » (الانفال ٧٢) ظلت هذه الدولة تنحصر على المدينة نفسها وعلى ريفها الى عام فتح مكة سنة ٨ هـ ، حرص النبي (ص) خلالها ان ينظم الحياة العامة داخل المدينة وكانت متقدمة معه جدا حيا ما يجري خارجها ، كذلك حرص — وعن طريق السرايا — على ان يضم الى المدينة ما حولها من الريف والقبائل ، ويقوم بعملية تحييد سياسي وعسكري لكل الحزام الجغرافي المحيط

بها ، لان المدينة لا تستطيع أن تعيش بنفسها ، ولا أن تستغني عن ريف
يمدها بالمؤن ويكون مجالا لنشاطها (٣٩) . لقد احكم الرسول (ص) علاقاته
مع العرب البدو خارج المدينة تارة بالمهادنة والمخالفة واخرى بالضرب على
ايديهم ، وكان خلال كل ذلك يؤكد لهم حيوية وقوة المدينة والدولة الجديدة
فيها . في السنتين الاوليين في عمر الدولة المدينة كان الرسول (ص) يرسل
السرايا — وهي عبارة عن حملات حربية صغيرة — يقصد بها ما يقصد من
اعمال الدوريات الحربية وهي المحافظة على الحدود والاستكشاف ، واحيانا
ايقاع الضرر بالعدو والانسحاب بسرعة ، وللدكتور أحمد الشريف رأي في
تأكيد الصفة الدفاعية أساسا للسرايا وأظن انه الرأي الاصبوب : « ويذكر
المؤرخون هذه السرايا على انها عمليات حربية مقصودة بذاتها (الطبري وابن
كثير والواقدي) وعلى انها متصلة بالصراع بين النبي (ص) ومكة ، وهذا
خطأ في نظرنا ، والخطأ آت من أن المصادر نفسها والمؤرخين المحدثين لم
يفطنوا الى أن هذه السرايا كانت عمليات حربية داخلية ، يقصد بها تقوية
الجهة الداخلية ، ويقصد بها كذلك ضمان الامن ودفع الاذى الذي قد
يأتي من الخارج (٤٠) . » ويمضي دكتور الشريف بالتأكيد على ، انه كان من
مهمة هذه السرايا منع تجارة قريش من المرور في اراضي الدولة الجديدة ،
طبقا لنص الصحيفة الذي يقول انه لا تجار قريش ولا أموالها ، وهذا داخل
في نطاق أعمال السيادة للدولة الليثية وكان لا بد من اشعار قريش ، ومن
اشعار القبائل المجاورة أن حدود الدولة الجديدة محروسة ، وأن سيادتها
على اراضيها يجب أن تحترم ، وانه من الخير الاتفاق معها والاعتراف بها
(٤١) . « كان الرسول (ص) يبعث هذه السرايا القتالية كضرب من العمليات
العسكرية الوقائية ، ولو كان يقصد بها حربا هجومية بالذات لخرج كتيبته
الخضراء الذي قال عنها ابن هشام : وانما قيل لها الخضراء لكثرة الحديد
وظهوره فيها (٤٢) وقال عنها ابن اسحاق : فيها المهاجرون والانصار ، رضي
الله عنهم ، لا يرى منهم الا الحديق من الحديد (٤٣) . لقد حرص الرسول
(ص) خاصة في الفترة المدنية أن يظهر لجميع الناس حسن نواياه حتى
تجاه مكة وقريش واليهود ، وليؤكد لجميع الناس في يثرب والجزيرة العربية
كلها أنه انها جاء ليبشر وينذر ، حتى لجأ — وذلك لابراز نيته السلمية —
لافهام الناس وبطريقة مادية محسوسة انه لا يود حربا ، لجأ في التعبير عن
هذه النية الى طريقة مستحدثة تاباها الفروسية العربية ، وهي طريقة حفر
الخنق حول المدينة (٤٤) .

خلاصة :

* من خلال هذا العرض الموجز لممارسات الرسول (ص) في شأن ملكية الارض والماء والكلا والحرف والعمل وبيع قوة العمل والصحيفة نستطيع ان ندحض المقولة التي تحدد الاسلام وتقيسه وتحاصره في نطاق الاخلاق الفردية والمناقبية المثالية ، ونثبت حجية الراي القائل بأن الاسلام منهج يعني بشؤون الحكم والادارة والسياسة وبأنه جاء ليلغي واقعا جاهليا بكافه وجوهه السياسية والاقتصادية والاجتماعية وينشئ مكانه واقعا اسلاميا يختلف جذريا في منطلقاته واهدافه ووسائله واطره ومحطاته عن الواقع الذي سبقه . وبوسعنا ان نقول انه من خلال موقف الرسول (ص) من هذه القضايا الثلاث :

(١) ملكية الارض والماء والكلا .

(٢) الحرف وبيع قوة العمل والعمال .

(٣) والصحيفة ، وغيرها من الممارسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية نستطيع ان نلمس روح الفكر السياسي في الاسلام ونوع الحكم والاقتصاد والمجتمع الذي كان بصدد صنعة القرآن ممثلا بالجماعة الاسلامية الاولى . واذا كان الامر كذلك فينبغي ان نفرد بحثا يتبع هذا يتناول ماهية الدولة في القرآن ، نقارن فيه مؤسسة الحكم عند العرب قبل الاسلام وطبيعة هذه المؤسسة كما جاءت من خلال النص القرآني والحديث النبوي الشريف . ولا بأس ان نخرج بعدها ببحث ثالث نقارن فيه بين الدولة كما ارادها القرآن والدولة وكما هي اليوم في المنطقة المسماة بالعالم الاسلامي . وختاما نؤكد بأن القرآن والسنة وكافة القضايا المتفرعة من تاريخها فيها من الثراء الفكري وفي المبادئ المنهجية وفي القيم السياسية والاقتصادية والاجتماعية ما يفرض علينا نحن المهتمين بشؤون الدراسات الانسانية ان نوليها اهتماما اكثر مما هو جاصل ، كيما نستخرج ونستنبط منها مناهج في الادارة السياسية والتسيير الاقتصادي والتخطيط الاجتماعي . من خلال ذلك تتقوى بنياناتنا ، وتتأصل مناهجنا ، ويتثبت مكاننا في مساحة الحضارة . ومن خلال ذلك تتحدد هويتنا الحضارية والفكرية والسياسية ونصبح جديرين بالبقاء في عالم اصبحت المناهج الفكرية فيه بديلة لكثائب الفوز ، فنحن بلا شك في عصر الاستعمار الجديد الاكثر خطورة والاعمق اثرا في ميزان التاريخ والحضارة .

الحواشي

- ١ - سيرة ابن هشام - ج ٤ ، ص ١٠٢٧ .
- ٢ - سيرة ابن هشام - ج ٣ ، ص : ٥٩٨ .
- ٣ - سيد تطب ، « معالم في الطريق » - القاهرة : ١٩٦٤ - ، ص ٨٣ .
- ٤ - أبو الأعلى المودودي ، « مبادئ أساسية لفهم القرآن » - الكويت : ١٩٧١ - ، ص ٢٠-٢١ .
- ٥ - سيرة ابن هشام ، ج ، ص ١٩٠ .
- ٦ - سيرة ابن هشام ، ج ١ ، ص ١٩٤ - ١٩٥ .
- ٧ - « كان الرجل اذا سافر فنزل منزلا أخذ أربعة أحجار فنظر الى أحسنها ، فجعله ربا ، وجعل ثلاث أثاني لغدره واذا ارتحل تركه . « كتاب الاصلان » ، للكلبي ، ص ٣٤ . روى البخاري عن أبي رجاء المطاردي قال : « كنا نعبد الحجر . لماذا وجدنا ما هو خير منه القينا وأخذنا الآخر لماذا لم نجد حجرا جيعنا حنوة من تراب ، ثم جئنا بالشاة لمحبنا عليه ثم طننا به « الجامع الصحيح ، كتاب المغازي .
- ٨ - د. محمد رأفت عثمان ، « رئاسة الدولة في الفقه الإسلامي » - القاهرة : ١٩٧٥ - ، ص ٣ .
- ٩ - المرجع نفسه ، ص ٧ .
- ١٠ - المرجع السابق ، ص ٩ .
- ١١ - د. علي عبد المعطى ود. محمد جلال ، « خصائص الفكر السياسي في الإسلام » ص ٩ .
- ١٢ - أبو سعيد نشوان الحبيدي ، « الحور العين » ، ص : ١٥ .
- ١٣ - مختصر الدول ، ص ١٥٨ - ١٥٩ .
- ١٤ - أكد هذه النقطة سيد تطب - رحمة الله عليه - في كل مؤلفاته وبالأخص : « خصائص التصور الإسلامي ومقوماته » و « معالم في الطريق » و « في ظلال القرآن » ٣٠ جزء .
- ١٥ - وقد ورد الحديث بهذا النص : « الناس شركاء في ثلاثة ، الماء والكلا والنار » وبذلك فأرض المراعي تعتبر ملكا عاما للناس جميعا لا يختص بها بعض دون بعض وكذلك الشأن بالنسبة لمصادر الماء والنار .
- ١٦ - المحتجر هو الذي يلجأ الى تحجير الأرض أي وضع الحجر كعلامات للملكية لتلك الأرض .
- ١٧ - « كتاب الخراج » ليعحي بن آدم القرشي .
- ١٨ - المرجع نفسه ، ص ٤٣ .
- ١٩ - المرجع نفسه ، ص ٥٠-٥٢ .
- ٢٠ -
- ٢١ - صحيح البخاري ، ج ٥ ، ص ٨٦ ، كذلك ابن الاثير ، « النهاية في غريب الحديث والاثار » ج ١ ، ص ٣٧ .

- ٢٢ — سيرة ابن هشام ، ج ٢ ، ص ٢٧٧ .
- ٢٣ — ابن حجر ، « فتح الباري بشرح صحيح البخاري » ، ج ٤ ، ص ٢٤٩ .
- ٢٤ — من يدرس شعر حسان بن ثابت — شاعر الرسول — قبل اسلامه وبعد اسلامه يدرك ذلك .
- ٢٥ — الحافظ المنذري ، « الترغيب والترهيب » ، ج ٣ ، ص ٤ .
- ٢٦ — ابن تيمية ، « السياسة الشرعية في اصلاح الراعي والرعية » ، ص ١٢ .
- ٢٧ — النويري ، « نهاية الارب » ، ج ١٨ ، ص ٢٦٣ .
- ٢٨ — القسطلاني ، « ارشاد الساري » ، ج ٥ ، ص ٥٠ .
- ٢٩ — سنن ابن ماجه ، ج ٢ ، ص ٤٥ .
- ٣٠ — الحافظ المنذري ، « الترغيب والترهيب » ، ج ٣ ، ص ٣ . رواه ابو داود واللفظ له ، والنسائي ، والترمذي ، وقال حديث حسن .
- ٣١ — الكاساني : « بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع » ، ج ٤ ، ص ٨٩ .
- ٣٢ — الكاساني ، « بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع » ، ج ٤ ، ص ٨٩ .
- (٣٣) فتحي عثمان ، « دولة الفكرة » (الكويت : ١٩٦٨) ص ٥٧ .
- (٣٤) د. أحمد الشريف ، « (دولة الرسول في المدينة) » (الكويت : ١٩٧٢) ، ص ٨٩ .
- ٢٥ — الحافظ المنذري ، « الترغيب والترهيب » ، ج ٣ ، ص ٤ .
- (بيروت : ١٩٦٩) ص ٣٩ — ٤٧ . يذكر د. حميد الله كل المراجع الرئيسية التي وردت فيها هذه الصحيفة ، كما تشرح حواشي كتابه القيم مصطلحات الصحيفة التي قد تستغل على القارئ المعاصر .
- (٣٦) د. أحمد الشريف ، المصدر السابق ، ص ٩٥ .
- (٣٧) المرجع نفسه ، ص ٩٦ — ٩٧ .
- (٣٨) المرجع نفسه ، ص ١٠٠ .
- (٣٩) المرجع نفسه ص ١٠٤ .
- (٤٠) المرجع نفسه ، ص ١٠٥ .
- (٤١) المرجع نفسه ، ص ١٠٦ .
- (٤٢) سيرة ابن هشام ، ج ٤ ، ص ٨٦٣ .
- (٤٣) المرجع ذاته .
- (٤٤) المرجع نفسه ، ج ٣ ، ص ٧٠١ .